الملائكة

السـؤال : ما الملائكة ؟

الجـواب : لقد خلق اللّه الملائكة وأخبرنا بذلك ووصفهم فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم .. بل وحدد أنواعًا منهم .

وأنهم : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

ومنهم الحفظة . ومنهم الرقيب على كلمات وأفعال البشر. ومنهم « المدبرات أمرًا، » تلك الملائكة المسخرة لأقدار أرادها .

والملائكة غيب كالجن تمامًا .

إنهم أجناس تختلف فى تصويرها وشكلها ومادتها عن الإنسان .

والملائكة غيب لا نراه ولابد أن نؤمن بوجودهم كما أمرنا اللّه .

ومن الناس من يقول : إن الملائكة هم الأسباب أو المسميات !

لهؤلاء نقول : أتظنون أنكم تسهلون الأمر على الخالق ؟

إن الخالق لم يسأل أحدا أن يسهل عليه أي شيء لأنه القاهر فوق عباده من الإنس والجن والملائكة .

إن الملائكة هم من خلق اللّه ومن جنس يختلف عن البشر .

وعلى المؤمن أن يؤمن بوجودهم .

فليس كل ما خلق اللّه يشعر به الإنسان .

openkanda.com

ضوابط تغيير المنكر

السـؤال : **ما ضوابط تغيير المنكر وما رأيكم فيمن يتخذون العنف سبيلاً لتغييره ؟**

الجـواب : الرسول صلى اللَّه عليه وسلم حسم هذا الأمر فى حديثه : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[(١)] .

فجعل التغيير باليد له استطاعة . فالذين يتبعون سبيل العنف لم يفهموا معنى الحديث . لأن الحديث قدر عدم الاستطاعة فقال : فإن لم يستطع .

كما أن الناس يفهمون أن التغيير بالقلب أن يقول : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك ويسكت ، وهذا فهم خطأ . لأن التغيير بالقلب أن تمقت ذلك المنكر ، وتمقت فاعله ، وتخرجه من حيز لقاءاتك الإيمانية ، بمعنى أن تقاطعه ويُبعد عن المجتمع الإيمانى حتى يعلم أنه حين خالف ، عُزِلَ عن المجتمع .

ولكن المؤسف حقًّا أن الناس لا يفعلون ذلك . فترى المخالف يجاهر بمخالفته ومع ذلك نجد الناس تجالسه وتعاشره وتصاحبه ، فلا يشعر بمخالفته ويتمادى فيها .

فالتغيير بالقلب أنك لا تكون منافقًا . شىء
لم ترضه بقلبك فيجب أن تخضع قالبك له بأن تقاطعه .

إذن . . فالرسول صلى اللَّه عليه وسلم بين أن هناك استطاعة وهناك حدودًا . فأنا مثلاً لى ولاية على ابنى فلو فعل منكرًا أضربه وأزجره وأعنفه .

إنما إذا تعرضت لمجرم ومنعته بالقوة لا أدرى ماذا يحدث بعد ذلك .

---

(١) رواه مسلم [٤٩/٧٨] .

إذن . . فعلىَّ أن أنصحه وأعظه بالكلام اللين المستميل . فلا أجمع عليه عنف إخراجه مما ألف بما يكره ، بل أخرجه مما ألف بأسلوب ليِّنٍ وأسلوب حسن .

إذن . . فالمسألة تُبين أن لكل استطاعة حدودا . فإن استطعت باليد كما تكون فى أهلك وفى أتباعك فافعل ، لكن الذى ليس لك عليه سلطان أو ولاية لا تغيره بيدك ، ولكن بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة . وإن لم تستطع ذلك فقاطعه[١] واعزله عن حياتك الإيمانية . فإذا عزل كل مخالف أو كل منحرف عن المجتمع المسلم ، يعلم أنه ما عزل إلا لأنه خالف ، فيستقيم .

❁ ❁ ❁

(١) من وسائل التغيير تقديم الأفضل مثل أن تجد سلعة رديئة أو خدمة تعليمية رديئة لا تستطيع تغييرها فتقدم أنت الأفضل .

obeikandl.com

لا لطاعة تورث الاستكبار

السؤال : **بعض الصالحين يقول : « رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا » ؟**

الجواب : يجرب العاصى طاعة اللَّه فيدخل فى رحاب اللَّه طالبًا المغفرة والتوبة وبعض البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم سنفعل ذلك العمل الخير لأنه خفيف على الإنسان ، وقد يغفر اللَّه لنا به المعاصى .

وقد نجد زلة خفية لبعض من يفعلون الخير ، فيسترها اللَّه عن عيون الناس كرمًا لفعل الخير .

ولذلك يقول بعض العارفين باللَّه ممن عرفوا حلاوة الإشراق والتنوير : « رب معصية أورثت ذلاً وانكسارًا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا » .

كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها ولا تدخل فى باب التيه بالعبادة .

وأوجد الخالق باب التوبة مفتوحًا حتى يدخله العاصى طالبًا العفو من اللَّه[(١)] .

---

(١) روى الترمذى [٣٥٣٧] وابن ماجه [٤٢٥٣] ، وأحمد فى المسند [٢/ ١٥٣] عن ابن عمررضى اللَّه تعالى عنهما عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . وقال الألبانى : حسن وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

وروى مسلم [٢٧٥٩/ ٣] عن أبي موسى رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : إن اللَّه عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

وروى أحمد فى المسند [١/ ٤٠٣] عن ابن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : إذا كان ثلث الليل الباقي يهبط إلى السماء الدنيا ثم يفتح أبواب السماء ثم يبسط يده فيقول هل من سائل يعطى سؤله ولا يزال كذلك حتى يسطع الفجر . =

ونحن فى هذا العصر نجد بعض المشرعين الوضعيين يستنكفون أن يحملوا أنفسهم على تحقيق مطلوب الدين . . هؤلاء المشرعون أنفسهم لا يستطيعون على الإطلاق الخروج من الدائرة التى فرضها اللَّه ، وهى فتح باب التوبة . . إن التشريع الوضعى يقرر مبدأ رد الاعتبار للمجرم التائب الذى لا يعود لارتكاب جريمة ما ، ويسمون ذلك رد الاعتبار بالتقادم ، وهكذا يستطيع المجرم التائب أن يواجه المجتمع وهو غير محمَّلٍ بعبء أوزار الماضى .

كذلك أراد اللَّه لآدم عليه السلام ، أن يوجد فى الأرض وهو غير محمل بعبء معصية نتيجة الغفلة . . وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لآدم : « إياك أن تجعل معصيتك فى بالك لتصدك عن حركة الحياة . . وخذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصى واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح .

يقول لنا الحق سبحانه فى هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به العباد . . كأن يجعلوا من إنسان ندا للَّه أو أن يعبدوا إنسانًا من دون اللَّه أو صنمًا . . أما المغفرة فهى من إرادة اللَّه لكل الذنوب إلا الشرك به سبحانه وتعالى .

ويقول أيضًا : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

إن اللَّه يأمر رسوله بأن يبلغ الناس كافة أن العباد الذين أسرفوا على أنفسهم بكثرة المعاصى عليهم ألا ييأسوا من رحمة اللَّه وأن يعلموا أن اللَّه يغفر الذنوب جميعًا .

ولكن الحق جل وعلا لا يترك باب التوبة مفتوحًا بدون شروط . . لا . . إن للتوبة شروطًا . . لنسمعها فى قول اللَّه فى الآيتين التاليتين للآية السابقة

= وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبى الأحوص فمن رجال مسلم .

حين يقول الحق : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر] .

إن التوبة تستدعى أن ينيب الإنسان أمره لصاحب كل أمر ، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه للَّه ، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب فى الحياة أو فى الآخرة . . ولابد أن يتبع التائب أفضل ما نزل من الخالق إلى المخلوقات وهو القرآن الكريم .

ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى اللَّه وأن الخالق هو التواب الرحيم.

وكأن اللَّه فى حديثه عن آدم يقول لنا :

إننى تواب . . لم أقبل توبة آدم وحدها ، ولكنى أقبل توبة أي عبد منكم يا أبناء آدم .

ولنا أن نعرف أن حديث اللَّه عن نفسه أنه « تواب » يتضمن التوجيه المباشر لكل عاص أن يسرع بالتوبة إليه وإلى تلقى رحمته وهو يغفر الذنوب جميعًا لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه . .

إن اللَّه لا يحب أن يظلم عباده. ولكن العباد يظلمون أنفسهم. . لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[(١)] [فصلت : ٤٦] .

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية : التوبة نوعان** : واجبة ومستحبة :
فالواجبة : هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم اللَّه بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسله .**والمستحبة** : هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين .
والتوبة : رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه .
فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى اللَّه ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما ظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله =

= العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .التوبة لابن تيمية [ص : ١٣، ١٤] .

وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار .

فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه فى الماضى ، والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة ، فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة . ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفى المسند « الندم توبة »(١) .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ؛ فإن الاعتذار مُحاجَّة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شيء :

وما قابلتُ عُتْبَكَ باعتذار ولكنّى أقولُ كما تقولُ
وأطرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكسار ويحكمُ بيننا الخُلُق الجميلُ

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللَّهُمَّ لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، اللَّهُمَّ لا عذر لى ، وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكارًا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعًا فى مغفرتك واتكالاً على عفوك ، وحُسْنِ ظَنٍّ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعًا فى سعة حلمك ورحمته ، وغرنى بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخى عليّ ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام =

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط : صحيح .

= لي إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية . فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفي الحديث : « تملقوا لله »[1] ، وفي الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » وإن كان معنى ذلك الإعذار ؛ كما قال في آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين »[2] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾ . فإنه من تمام عدله وإحسانه : أن أعذر إلى عباده ، وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه ، فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفي الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره »[3] . فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

أما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله ، كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟

قالوا : ما المراد بها ؟

قال : إقامة أعذار الخليقة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفاني الذاهب ، والترغيب في الباقي الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبي الذي يُزَيَّن له ما يلعب به فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل : « زينا للناس » والله تعالى يُضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

وفي الحديث : « بعثت هاديًا وداعيًا ، وليس إليَّ من الهداية شيء ، وبعث إبليس مغويًا ومزينًا ، وليس إليه من الضلالة شيء » ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن إضافة التزيين إليه قضاءً وقدرًا ، وإلى الشيطان تسببًا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة . وليس هو من الاعتذار في شيء ، وفي بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب ، فقال : يا رب ، هذا قضاؤك ، وأنت قدرت عليَّ ، =

(١) لم أجده فيما تحت أيدينا من مراجع .

(٢) أخرجه مسلم [١٧/١٤٩٩] عن سعد بن عبادة رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى [٤٣٣٨/٣٠٢/٧] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه .

= وأنت حكمت عليَّ ، وأنت كتبت عليَّ . يقول اللّه عز وجل : وأنت علمت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه .

وإذا قال : يا رب ، أنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول اللّه عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك .

وإذا عمل حسنة ، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ، وأنا صليت ، وأنا أطعمت يقول اللّه عز وجل : وأنا أعنتك . وأنا وفقتك .

وإذا قال : يا رب أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت عليَّ .

يقول اللّه تعالى : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافي الاعتراف . فذلك منافٍ للتوبة .

واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

مدارج السالكين [١/ ٢٠٢:٢٠٥] .

قال صاحب المنازل : وحقائق التوبة ثلاثة أشياء :

تعظيم الجناية .

واتهام التوبة .

وطلب أعذار الخليقة .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبى صلى اللّه عليه وسلم لحارثة : « إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ »[(١)] . **فأما تعظيم الجناية** : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة فلس – مثلاً – لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء :

تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة عِلَّةٍ وهو لا يشعر بها ، كَتَوْبَةِ أرباب الحوائج =

(١) روى ابن أبى شيبة فى المصنف كتاب [٢٧] الإيمان والرؤيا ، باب [٥] حديث رقم [٧٤] عن زبيد قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسى عن الدنيا ، وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى قد أبرز للحساب ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، قال : فقال له : عبد نور الإيمان فى قلبه ، إن عرفت فالزم » وانظره فى ترجمة حارثة بن سراقة فى أُسد الغابة لابن الأثير [١/ ٦٥٠/ ٩٩٣] ، والإصابة لابن حجر العسقلانى [١/ ٥٩٧/ ١٤٨٠] .

= والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفًا من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفًا من اللَّه ، وتعظيمًا له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة .

فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضًا : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشورًا بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة . مدارج السالكين [١/ ٢٠٥:٢٠٦] . التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر اللَّه طرفة عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندمًا وخوفًا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] . قال : تقطعها بالتوبة .

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذه حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفًا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا ، تقطع فى الآخرة إذا حقّت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هي أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا . كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدا ، ولا عنه غناء ، ولا منه مهربًا ، وعلم=

= أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه ، وقوة سيده ، وذله ، وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ! وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جَبْره بها . وما أقربه بها من سيده !

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فاللّٰه ما أحلى قوله في هذه الحال : « أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني ، أسألك بقوتك وضعفي ، وبغناك عني وفقري إليك ، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل . وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذَلَّ لك قلبه » .

يـا من ألـوذ به فيما أؤمـلـه ومن أعـوذ به مما أحـاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته ، وليرجع إلى تصحيحها .

فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ، فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم ، ومنتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى اللّٰه ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك .

فإن تدارك اللّٰه أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ؛ ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه ، فهي رحمة في حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة في حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

مدارج السالكين [١/ ٢٠٦ : ٢٠٨] .